نظرية التلقي في التراث العربي والفكر الغربي.

أيمن علي أبو زيد جابر [*]

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد:

فلا يمكن لأحد ادعاء تفسير آية من آي القرآن الكريم من مستوياتها جميعها، وإحاطته بكل دلالاتها؛ لهذا كان من التفسير ما يتعلق بالجانب المأثور، ومنه ما يتعلق بالبيان، والبلاغة والنحو، ومنه ما يتناول الأحكام الفقهية العملية، وهناك ما يبحث في الآيات الكونية التي تصور عظمة الخالق في الآفاق والأنفس، وهناك ما يغلب عليه الطابع العقلي وغيرها . فالمفسر متلقٍ للنص القرآني؛ بوصفه قارئًا متدبرا فيه، ومتعلقًا له، وتدبره فيه يحاول أن يتبين معاني النص واحتمالاته؛ ليصل إلى المقصود منه، فيكون مرة طالب معنى، ومرة تحليل وإعراب.

وقد ذكر ابن جزى الكلبي في مقدمة تفسيره اثني عشر سببا لاختلاف المفسرين ومنها[١]:

---

[*] هذا البحث مستل من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحث، وهي بعنوان: [السياق وأثره في فهم آي القرآن الكريم عند المفسرين في ضوء نظرية التلقي (نماذج مختارة)] وتحت إشراف: أ.د. وحيد الدين طاهر عبد العزيز – كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي & أ.م.د. حمد الله عبد الحكيم كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي.

[١] التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزى الكلبي (ت٧٤١هـ)، تحقيق :محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان،ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ج١/١٢.

١) اختلاف القراءات.

٢) اختلاف وجوه الإعراب، وإن اتفقت القراءات.

٣) اختلاف اللغويين في معنى الكلمة.

٤) اشتراك اللفظ بين معنيين فأكثر.

٥) احتمال العموم والخصوص.

فالمفسر في أحيان ليست قليلة يكون محملاً بأعباء فكرية، وعقائدية مما يجعله يتوجه في تفسير إلى ما ينسجم مع ذلك، أي : مرجعياته، وتوجهاته. ولعل قول الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ مصداق لهذا، عندما وصى عبد الله بن عباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج : " لا تخاصمهم بالقرآن، فإن القرآن حمَّال ذو وجوه، تقول ويقولون ...."[١] ومن منطلق قول الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ أن كل قارئ سيطلع على النص بمرجعياته الثقافية، وبما يمتلك من آفاق التوقع، أو التلقي التي تكمن فيها كل معاني القارئ، وثقافته، وخبراته وتأملاته التي تلقي بظلها على الدلالات التي ستخرج بها القراءة في النهاية، وكلما خالف النص آفاق الانتظار والتوقعات، ظهرت آفاق جديدة مغايرة وزيادة في المسافة الجمالية كما يدعوها (ياوس).

والتي يمكن قياسها بردود أفعال القراء؛ لتشكيل التوتر بين أفق النص، وأفق انتظار الجمهور، فكلما خيب النص أفق الانتظار في النصوص الاعتيادية دلَّ على

[١] شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد هبة الله المعتزلي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة اسما عيليان للنشر والتوزيع، إيران، ٧١/١٨.

ا ختراق السَّائد، مثيرا دهشة وحب معرفة جديدة، مما يعني تأويلاً جديدا، وتلاقح أفكار المتلقين الآخرين؛ ليزهو النص بمعنى جديد في كل قراءة .

ومن هذا المنطلق قمت بإعداد خطتي في كتاب الله تحت عنوان (السياق وأثره في فهم آي القرآن الكريم عند المفسرين في ضوء نظرية التلقي) (الكشاف، البحر المحيط، التحرير والتنوير) (نماذج مختارة).

أهمية البحث :

١) تأتي أهمية هذه الدراسة أنها تشكل إمكانية للتفكير والتأويل بطرق متعددة، وما اصطلحت عليه نظرية التلقي بأفق التوقعات، والخبرات المعرفية، والجمالية التي تسهم في بناء توقعات معينة لمعانٍ محتملة، يملأ بها المتلقي فراغات النص، ويجلي غموضه.

٢) كون هذه الدراسة تجربة من التجارب الجديدة في قراءة النص وفق نظرية التلقي.

الهدف من الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة وفق أسس نظرية التلقي، ومفاهيمها، ومصطلحاتها، والدخول إلى جو النص القرآني، وفهمه وتأويله.

صعوبات البحث :

تكمن صعوبة البحث في قداسة النص القرآني، خاصة عند إخضاعه للمناهج الغربية الحديثة (نظرية التلقي)، تجعلنا نتعامل معه بتحفظ شديد، وانتقاء ما

يناسب مستوى النص القرآني في سموه وعلوه على النصوص البشرية، والنظر إليه بعين القداسة للوصول إلى تحقيق الأهداف المرجوة .

منهج البحث :

اعتمدت في دراستي هذه على المنهج التحليلي، وفق نظرية التلقي وتطبيقاتها.

الدراسات السابقة :

١) المتلقي في الخطاب القرآني، إعداد الطالبة/ بوفرومة حكيمة، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، الجمهورية الجزائرية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الأدب العربي، ٢٠١٠/٤/٢١م، جامعة مولود معمري، تيزي وزو.

نظرية التلقي.

جاء في لسان العرب : " فلان يتلقى فلان أي يستقبله"[١] ويقال في العربية : " تلقاه أي استقبله" والتلقي هو الاستقبال كما حكاه الأزهري[٢].

أي متلقىreceptionist أي استقبال وتلقي، ويقال reception بينما يقال في الإنجليزية

أو مستقبل يستقبل الوافدين في مؤسسة أو فندق أو مكتب .

ولكن الغالب في لغتنا العربية استعمال مادة " التلقي " بمشتقاتها مضافة إلى نص سواء أكان النص خبرا أو حديثًا أو شعرا أو خطابا، وحسبنا في هذا القرآن الكريم

(١) لسان العرب، جمال الدين أبو الفضل محمد بن منظور، تحقيق : عامر أحمد حيدر، (مادة لقا)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ٨/ ٦٨٥.

(٢) تهذيب اللغة، أبو منصور بن أحمد الأزهري الهروي، (باب القاف و اللام) تحقيق: أحمد عبد الرحمن مخيمر، ط١، ٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ٧/ ٢٧٦.

فقد استخدم مادة التلقي في نسقه التعبيري، ولم يستخدم مادة الاستقبال ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٣٧) ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴾ (ق: ١٧) وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (النمل: ٦) وقوله تعالى :﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ ﴾ (النور: ١٥) فاستعمال القرآن لمادة التلقي مع النص تنبه إلى ما قد يكون لهذه المادة من إيحاءات وإشارات إلى عملية التفاعل النفسي والذهني مع النص، حيث ترد لفظة " التلقي " مرادفة لمعنى الفهم والفطنة أحيانا، وهذه المسألة لم تغب عن بعض المفسرين في الإلماح إليها، وكذلك لم تغب عن أدبائنا ورواد النص أو إرساله، وتلقيه أو استقباله فآثروا الإلقاء والتلقي وجعلوهما فنا، وخاصة في مجال النص الخطابي(٣) .

التلقي اصطلاحا :

"هي مجموعة من المبادئ والأسس التي شاعت في ألمانيا خلال فترة الستينيات على يد مدرسة كونستانس، وتهدف إلى الثورة ضد البنيوية والوصفية وإعطاء الدور الجوهري في العملية النقدية للقارئ باعتبار أن العمل الأدبي منشأ حوار مستمر مع القارئ "(٤).

ولعل المستنتج من ذلك أنَّ مصطلح التلقي يستتبع الاهتمام بالقارئ، وبتجديد معنى النص وتأويله ، والوصول إلى نتائج يكون القارئ أو هويته هو محورها.

(٣) قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي، دراسة مقارنة، محمود عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي ، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ١٣، ١٤.

(٤) مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، سمير سعيد حجازي، دار الآفاق العربية، ط١، ٢٠٠١م، ص١٤٥.

فنظرية التلقي لم تقتصر على فاعلية القارئ فقط، بل فتحت أفقاً جديداً في مجال التأويل، ولم تعد غاية دراسة الأدب هي المعرفة فحسب، بل معرفة طرائق المعرفة وإمكانياتها وممكناتها مما يعني أنَّ الوقوف على دلالات النص لا يكون فقط بالتفسير، وإنما يتعداه إلى التأويل.

وكذلك تميل هذه النظرية إلى الاعتقاد بأنَّ القارئ هو الخالق الحقيقي للمعنى، وليس حصر المعنى بالنص، وقد ورد هذا المصطلح بتسميات مختلفة وهي نظرية التلقي، نظرية الاستقبال، نظرية القراءة، جمالية التلقي، جمالية الاستقبال[١] .

رواد نظرية التلقي:

١) هانز روبرت ياوس :

أحد أساتذة جامعة كونستانس الألمانية، والرائد الأول لنظرية التلقي، حيث قدم درسه الافتتاحي لجامعة كونستانس سنة ١٩٦٧م، فقدم آراء جديدة يشرح فيها جمالية التلقي، وذلك حين أدرك أنَّ الدراسات الأدبية بعد الحرب العالمية الثانية لا تفرق بين في العملية الإبداعية بين القارئ والمؤلف أي أنها ظلت سجينة الرؤية؛ لأنها لم تعط أدنى اهتمام للقارئ ولا لتاريخ القراءة، فكان هدف (ياوس) منذ البداية هو الربط بين الأدب والتاريخ، على أساس أن النماذج الأدبية تعبير يستوحي خلاصة التجارب الإنسانية، وحاول ياوس أن يخلص الأدب الألماني من تأثير المذهب الماركسي في النقد، والمذهب الشكلي الروسي؛ فالقارئ في المذهب الماركسي يتعامل مع النص الأدبي من خلال التفسير المادي للتاريخ، فهو في نظر ياوس قارئ يستقبل النص تحت وطأة المذهب الماركسي، وبالتالي فهو معزول تماما عن جمالية النص، وأما القارئ في المذهب الشكلي الروسي فهو يستقبل النص معزولاً عن مواقفه التاريخية، وغاية همه الوقوف عند البناء الشكلي . وقد استطاع (ياوس) التغلب على هذا الانقسام والتوصل إلى رؤية جديدة تضع

(١) ينظر : نظرية التلقي أصول ... وتطبيقات، بشرى موسى صالح، الناشر : المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط١، ٢٠٠١م، ٤١، ٤٢ .

القارئ في موضعه المناسب من النص، وأطلق على هذه الرؤية " جمالية التلقي "[٢]. والمفهوم من كلام (ياوس) ودعوته للربط بين الأدب والتاريخ أن التعامل مع النص يتم بمعيارين، لا عنى لأحدهما عن الآخر، وهما : معيار الإدراك الجمالي لدى المتلقي، ومعيار الخبرات الماضية التي يتم استدعاؤها في لحظات التلقي[٣] .

أهم الأفكار التي نادى بها ياوس

أفق التوقعات أو "أفق الانتظار" :

أخذ ياوس هذا المفهوم " الأفق " من جادمير وأضاف له كلمة " الانتظار " من مفهوم " خيبة الانتظار" عند كارل بوبر، ويعرف ياوس هذا المصطلح بأنه هو الفضاء الذي تتم من خلاله عملية بناء المعنى، ويتبين من خلاله دور القارئ في إنتاج المعنى عن طريق التأويل الأدبي[١].بمعنى أنه يمثل الخليفة الثقافية والمعرفية الأولية الموجودة في ذهن القارئ تجاه نص ما.

أما أفق التوقعات فهو عند ياوس ترجمة حرفية لأفق الانتظار، واستخدم هذا المصطلح لوصف المعايير والمقاييس التي يستعملها القراء للحكم على النصوص الأدبية في أية حقبة معينة[٢] .

ويقترح ياوس ثلاثة أشكال من المقاربة لإنشاء هذا الأفق وهي :

١) يتأسس الأفق من خلال المعايير المعهودة، أو جماليات الجنس الأدبي الذائعة .

٢) من خلال علاقاته الضمنية بالأعمال التي تتناول البيئة التاريخية الأدبية .

---

(٢) ينظر : قراءة النص وجمالية التلقي بين المذاهب الغربية وتراثنا النقدي، دراسة مقارنة، ٢٧.

(٣) قراءة النص وجمالية التلقي، ٢٨.

(١) ينظر : نظرية التلقي ، بشرى موسى صالح، ٤٥.

(٢) النظرية الأدبية المعاصرة، رامان سلدن، ترجمة: جابر عصفور، الناشر : دار قباء للنشر و التوزيع، القاهرة ،١٩٩٨م، ١٩٧.

٣) من خلال التفاوض بين الخيالي والواقعي أي بين الوظيفة الجمالية للغة وظيفتها العملية [٣].

ويفهم من اقتراحات ياوس أنه يفترض في القارئ أن يكون ذا حظ كبير أو معقول من المعرفة المكتسبة من جراء قراءاته للنصوص ومعاشرته لها، وتبنيه للسنن الفنية التي تميز جنسا أدبياً عن آخر، ولا تكتسب هذه المعرفة إلا عن طريق الدراية والممارسة[٤].

المسافة الجمالية:

هي المسافة الفاصلة بين الانتظار الموجود سلفاً والعمل الجديد، حيث يمكن للتلقي أن يؤدي إلى تغيير الأفق بالتعارض الموجود مع التجارب المعهودة، حيث يخيب ظن المتلقي في مطابقة معاييره السابقة مع معايير العمل الجديد، وهذا هو الأفق الذي تتحرك في ضوئه الانحرافات والانزياح عما هو مألوف[٥] .

يمكن توضيح مسار هذه العملية في الشكل التالي[١] :

أفق الانتظار الموجود سلفًا	المسافة	الأفق الجديد
←		
القارئ العادي	الجمالية	(القارئ بوعي جديد)

(٣) النص الأدبي بين الإنتاجية الذاتية وإنتاجية القارئ، قاسي صبيرة، معهد اللغات والأدب العربي، جامعة بسكرة، ٢٢٦.
(٤) ينظر : جماليات التلقي مفهومها ومرجعياتها الفلسفية، محمد سعدون، قسم الآداب واللغة العربية ، جامعة مسيلة، الجزائر، ٦٥.
(٥) نظرية التلقي ، بشرى موسى صالح، ٤٦.
(١) النص الأدبي بين الإنتاجية الذاتية وإنتاجية القارئ، قاسي صبيرة، ٢٢٧.

وبعد هذه الانزياحات يعود القارئ للتأويل كي يملأ الفجوات التي تتخلل النص، ومن ثمَّ يكتسب أفق توقعات القارئ مغزى جديد، حينما يصبح بنية تصورية اجتماعية، لا تعتمد على المعايير والقيم الأدبية فقط بل على الرغبات والطموحات، فيصبح النص قائما في ضوء خلفية من تجربة الحياة اليومية[٢] .

وتتم عملية بناء المعنى وإنتاجه داخل مفهوم أفق الانتظار، حيث يتفاعل تاريخ الأدب والخبرة الجمالية بفعل الفهم عند المتلقي، ونتيجة لتراكم التأويلات (أبينة المعاني) عبر التاريخ نحصل على السلسلة التاريخية للتلقي التي تقيس تطورات النوع الأدبي، وترسم التواصل التاريخي لقرائه[٣] .

ويمكن توضيح ذلك في الشكل التالي[٤]:

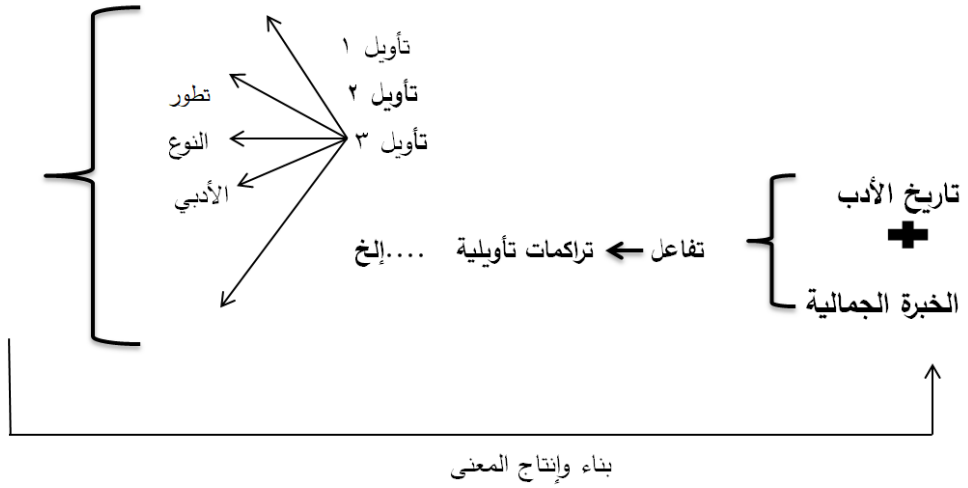

(٢) النص الأدبي بين الإنتاجية الذاتية وإنتاجية القارئ، ٢٢٨.
(٣) نظرية التلقي ، بشرى موسى صالح، ٤٧.
(٤) النص الأدبي بين الإنتاجية الذاتية وإنتاجية القارئ، ٢٢٨.

والمفهوم من هذا المخطط أنَّ التأويل أحد الركائز لدى المتلقي لإتمام عملية المعنى، وذلك لأنَّ التأويل هو عبارة عن تأمل وتدبر للنص غير ظاهر معناه، فيقوم المتلقي بجمع للمعاني الممكنة التي يحتملها النص.

٢) فولفغانغ آيزر :

هو أحد رواد نظرية الاستقبال البارزين، وأحد أقطاب جامعة كونستانس الذي أسهم في تطوير نظرية التلقي ووضع أسسها، وكانت أولى محاضراته تحت عنوان : " الإبهام واستجابة القارئ في خيال النثر" وهي محاضرة ألقاها على طلابه في جامعة كونستانس عام ١٩٧٠م، ولكنها لم تلق حظًا من الذيوع والانتشار إلا بعد ظهور كتابه " سلوكيات القراءة"" عام ١٩٧٨م .

واعتمد آيزر على مرجعيات متنوعة غذت فرضياته فاعتمد على مفاهيم الظاهراتية وعلم النفس واللسانيات والانثروبولوجيا، وأفاد من أعمال انغاردن الفيلسوف البولندي، واختلف آيزر عن ياوس في منهجه فلم يكن منهجه فلسفيا أو تاريخيا مثل ياوس، لكنه اعتمد على جانب التفسير، إشراك الذات المتلقية في بناء المعنى بواسطة فعل الإدراك، فالقراءة لديه هي نشاط ذاتي نتاجه المعنى الذي يرشحه الفهم والإدراك[١].

فالمعنى عند آيزر يستند إلى ثلاثة أبعاد[٢] :

١) البعد الأول :

يتضمن هذا البعد النص بوصفه هيكلاً لأوجه مخططة أي المظاهر التخطيطية كما اسماها انغاردن، ومعنى ذلك أن يكون هناك بناء ثابت يسمح للقارئ المشاركة في صنع المعنى.

٢) البعد الثاني :

(١) ينظر: نظرية التلقي ، بشرى موسى صالح، ٤٩.
(٢) ينظر: نظرية التلقي ، بشرى موسى صالح، ٥٠، وقراءة النص وجمالية التلقي بين المذاهب الغربية وتراثنا النقدي، دراسة مقارنة، ٣٥.

الإجراءات التي يحدثها النص في عملية التلقي، وفي هذا البعد يركز آيزر على الصورة الذهنية، التي تمثل الهدف الجمالي المتماسك.

وربط آيزر في هذا البعد فهم النص بفكرة النظم فقال : " يجب أن يفهم النص على أنه رد فعل لفكرة النظم التي تم اختيارها، والتحمت في ذخيرتها". ومعنى كلامه هذا أنَّ القارئ لا بد أن يتعامل مع النص من خلال النظم أي السياق العام للنص .

٣) البعد الثالث :

هو البناء المخصوص للأدب وفق شروط تحقق وظيفة تواصلية، وتحكم تفاعل القارئ به، وهذه العلاقة التفاعلية ناتجة عن كون النص ينطوي على مرجعيات خاصة به، ويسهم المتلقي في بناء هذه المرجعية عبر تمثله للمعنى[٢] .

القارئ الضمني عند آيزر:

يعتبر مفهوم القارئ الضمني قمة ما ابتدعه آيزر من مفاهيمٍ، ونظر آيزر إلى القارئ الضمني على اعتبار أنَّ المؤلف (المتكلم) يستبطن قارئا ضمنيا لنصه قبل ترتيب المعنى في ذهنه وقبل إنجاز الكلام، ويقول آيزر عن هذا المصطلح : " إنَّ هذا المصطلح يوجد قبل بناء المعنى الضمني في النص، وقبل إحساس القارئ بهذا التضمين عبر إجراءات القراءة "، والقارئ الضمني في نظرية التلقي ليس له وجود في الواقع، وإنما هو قارئ ضمني يخلق ساعة قراءة العمل الفني الخيالي، ومن ثم فهو قارئ له قدرات خيالية شأنه شأن النص، وهو لا يرتبط مثله أي مثل النص بشكل من الأشكال الواقع المحدد بل يوجه قدراته الخيالية للتحرك مع النص باحثاً عن بنائه ومركز القوى فيه وتوازنه، وواضعا يده على الفراغات الجدلية فيه، فيملؤها باستجابات الإثارة الجمالية التي تحدث له[١].

(١) القارئ وتجربة النص، مليكة دحامنية، المركز الجامعي، البويرة ، ص ١٣٣.

ونستنتج مما تقدم أن القارئ الضمني هو مفهوم إجرائي ينم عن تحول التلقي إلى بنية نصية نتيجة للعلاقة الحوارية بين النص والمتلقي، ويعبر عن الاستجابات الفنية التي يتطلبها فعل التلقي في النص[٢] .

ومن خلال ما ذكره آيزر عن القارئ الضمني أستطيع القول بأن القارئ الضمني هو القارئ الذي تنشأ بينه وبين النص عملية إحساس وارتباط بالنص فيملؤه باستجاباته الجمالية.

ومن المفاهيم التي نادى بها آيزر مفهموم الفجوات أو الفراغات أو اللاتحديد (...) فما هي ؟

الفجوات :

هي تلك المناطق الغامضة المبهمة وغير المحددة التي على القارئ أن يملأها باستخدام خياله، وهي بالتحديد ذلك الموقع الذي يتطلب فيه من القارئ أن يكون مسئولاً في إعادة تركيب المعنى، فهذه الفجوات تمثل المساحة الفارغة التي يعمل فيها القارئ داخل النص، فالتواصل والتفاعل بين القارئ والنص لا يحدث إلا من خلال ملء هذه الفجوات، وملء هذه الفجوات لا يكون إلا عن طريق القيام بإجراءات التأويل، والذي يفهم من ذلك أن ملء الفراغات عند آيزر محفز أساسي لعملية التواصل في القراءة [٣].

ومن خلال ما تقدم نستنتج أن عنصر التأويل عنصر ذات أهمية كبيرة في عملية القراءة؛ لذا نادى به آيزر وارتكز عليه في إحداث التواصل في عملية القراءة، واصطلح عليه بتسميته وجهة النظر الجوالة، وهي العملية التأويلية التي يقوم بها المتلقي حين قراءته للنص[١] .

---

(٢) نظرية التلقي ، بشرى موسى صالح، ٥١.

(٣) ينظر : المقامات والتلقي، بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث، نادر كاظم، الناشر : مملكة البحرين وزارة الإعلام والثقافة والتراث الوطني، ط١،٢٠٠٣م، ٢٧.

(١) فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب، فولفغانغ إيزر، ترجمة : حميد لحمداني، جلال الكدية، الناشر مكتبة المناهل، فاس، ١٣٥.

٣) رومان إنجاردن :

لم يكن إنجاردن من رواد نظرية التلقي، ولكن أفكاره أسهمت بشكل كبير فيما أسمهوه

" جماليات التلقي" واهتم اهتماما كبيرا بالعلاقة بين النص والقارئ جعل كتاباته مثابة لمعاصريه من النقاد والدارسين .

وتتلخص فكرته في أن العمل الأدبي يستند إلى بعدين :

١) البعد الأول :

يشتمل هذا البعد على طبقات متأثرة بعضها ببعض، فالطبقة الأولى تضم ما يسميه بـ " المواد الأولية " وهي عبارة عن التكوينات اللفظية، وما يصدر عنها من أصوات لها تأثير جمالي سواء أكانت تلك الأصوات داخلية أم خارجية مثل الأوزان و القوافي، والطبقة الثانية، تشمل كل وحدات المعنى، سواء كانت كلمات، جملاً أو وحدات مكونة من جمل متعددة، والطبقة الثالثة والرابعة تتمثل فيها الأهداف، ويرى انجاردن أن مجمل هذه الطبقات الأربع هي التي تكون البعد الأول وتسهم، وتحقق تناغما متعدد الأصوات .

٢) البعد الثاني :

ويضم هذا البعد سياق الجمل والفقرات والفصول، وتشكل تلك الطبقات والأبعاد بنية العمل الأدبي، وبذلك فإن أفكار إنجاردن ليست بجديدة فهي لم تخرج عن إطار اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون[٢] . ويعتبر أهم عمل يقوم به القارئ من خلال علاقته بالنص . في تقدير إنجاردن . هي ملء فراغات الغموض، فعلى سبيل المثال لو قرأنا جملة : " الطفل ضرب الكرة " فإننا نواجه بما لا يحصى من " الفراغات " في الهدف المقدم، فلا ندري إن كان الطفل يبلغ العاشرة أو السادسة من العمر أو

(٢) ينظر : نظرية الاستقبال ، مقدمة نقدية، روبرت سي هول، ترجمة : رعد عبد الجليل جواد، الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط١، ١٩٩٢م، ٣٨، ٣٩.

إن كان أنثى أم ذكر، أبيض أم أسود، شعره أحمر أو أصفر، فجميع هذه الأشكال غير متضمنة في الجملة، ولذا فإنها تشكل فراغات أو نقاطًا من الغموض[٣] .

ومن خلال ما تقدم أن نظرية إنجاردن تقوم على السياق الخاص بالجمل والفقرات فيقول : "لو ذكرنا هذه الجملة السابقة "الطفل ضرب الكرة" في رواية مكانها السويد، عندها يمكننا تخيل أن الطفل أشقر قوقازي"[١]، والدليل الثاني الذي اعتمدت عليه نظرية إنجاردن هو التأويل لملء الفراغات، حيث افترض افتراضات كثيرة حول عمر الطفل ولونه لملء هذا الغموض .ومن وجهة نظري الأساس لإدراك بنية العمل الأدبي، واستكمالها للقارئ أن يرتكز على السياق والتأويل لملء الفراغات .

آراء النقاد العرب في التلقي :

يقول ابن طباطبا العلوي : " الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصح لم يخلط به الحضري المولد، ... ويقف على مراتب القول، ... فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات، ويتوقى حطها عن مراتبها، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك، ويعد لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها، حتى تكون الاستفادة من قوله في وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وإبداع نظمه ".

ويؤكد هذا في مقولة : " الكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه، واستشهد بقول بعض الحكماء : للكلام جسد وروح، فجسده النطق، وروحه معناه"[٤].

ومعنى كلام ابن طباطبا أن المتلقي أنواع ومراتب، فقد يكون المتلقي ملكًا، وقد يكون قائدا، وقد يكون من العامة، فلذلك ينبغي أن يخاطب الملك بما يخاطب به

(٣) نظرية الاستقبال ،٤٠.
(١) نظرية الاستقبال ،٤٠.
(٤) عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق :عباس عبد الساتر، مراجعة : نعيم زرزور، الناشر : دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان،ط١، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م، ص١٢، ١٧.

أمثاله كما ينبغي أنه يخاطب القادة بصفاتهم، والعامة بما يتصفون به، حتى يكون للكلام معنى وروح . ومن أفضل ما استخلصه ابن طباطبا العلوي عن التلقي في رأيي استشهاده بحديث النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي يقول فيه :

" إن من البيان سحرا، وإن من الشعر حكمة"(١)، وكذلك " ما خرج من القلب وقع القلب، وما خرج من اللسان لم يتعد الآذان " . ويقول ابن طباطبا في هذا : " فإذا صدق ورود القول نثرا ونظما أثلج صدره " . وهذا من أبلغ المعاني للتلقي في رأيي، حيث فيه يؤكد ابن طباطبا على قيمة الاحساس والشعور عند استقبال الكلام؛ فللنفس كما يقول بعض الفلاسفة كلمات روحانية من جنس ذاتها(٢).

ومن النقاد العرب الذين أولوا أهمية كبيرة للمتلقي الجاحظ حيث يقول : " لا خير في المتكلّم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه، وإذا طال الكلام عرضت للمتكلّم أسباب التكلف، ولا خير في شيء يأتيك به التكلف، وقال بعضهم – وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوَّناه – لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتَّى يسابق معناه لفظه، ولفظُه معناه، فلا يكون لفظُه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"(٣) .

ويفرد الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" من كلام بشر بن المعتمر، حين يخاطب المتكلم بتحري مجموعة قواعد أسلوبية يراعى فيها الحال والمقام واضعا أنواع المتلقين نصب عينيه، ينشد فيها البلاغة وبلوغ مقاصدها وذلك في قوله : " فكن في ثلاث منازل؛ فإن أُولَى الثلاث أن يكون لفظُك رشيقاً عذْباً، وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، إمَّا عند الخاصة إن كنت للخاصَّة قصدت، وإمَّا عند العامَّة إن كنت للعامَّة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصَّة، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكون من معاني العامَّة، وإنما مدار

(١) الحديث صحيح، ورد في صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، بقلم : محمد ناصر الألباني، الراوي ابن عباس، باب إن من البيان سحرًا، رقم الحديث : ٣٣٩، الناشر : مكتبة الدليل ط٤، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م، ص ٣٢٤.

(٢) ينظر : عيار الشعر، ص ٢١.

(٣) البيان والتبيين، ١/ ١١٥.

الشّرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافَقَة الحال، وما يجب لكل مقامٍ من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصي، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولُطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفْهم العامَّة معاني الخاصَّة، وتكسوها الألفاظَ الواسطة التي لا تلطُف عن الدَّهماء، ولا تجفو عن الأَكْفاء، فأنت البليغ التام "[٤] . وهذا يعتبر إشارة غاية الأهمية من الجاحظ لطبيعة الفن الأدبي، والمتلقين وكذلك معرفة أغراضهم أثناء التخاطب، ومراعاة الأحوال النفسية والمزاجية للمتلقي، مما يترتب عليه درجة عالية من الاستمتاع .

أما شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني قد كانت له رؤى نقدية حول المتلقي وصفاته التي يجب أن يتميز بها فيقول : " هذا وإن توقفت في حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر في تحصيله، فهل تشك في أن الشاعر الذي أداه إليك، ونشر برَّه لديك، قد تحمل فيه المشقّة الشديدة، وقطع إليه الشّقة البعيدة، وأنه لم يصل إلى درِه حتى غاص، ولم ينل المطلوب حتى كابد منه الامتناع والاعتياص"[١] . ومن خلال كلام عبد القاهر الجرجاني يتبين أنه ربط بين مهمة المتلقي والدور المنوط بصاحب النص، فجعل الإبداع الفني وصفا مشتركا في التعامل مع النص نتاجا واستقبالاً، ولذلك كان الوصول للمتعة الفنية والجمالية هو نتيجة الجهد المبذول والفكر الدقيق في الحالتين؛ وهذا ما يبدو واضحا في قول عبد القاهر الجرجاني .

ويستمر عبد القاهر الجرجاني في وصفه للمتلقي وما يجب أن يكون عليه المتلقي، فيشبه المتلقي بالغواص الماهر، الذي يبذل الجهد في البحث عن الأصداف والقدرة على شقها للوصول إلى الجوهر الثمين. فيقول في ذلك : " فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني، كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلاّ أن تشُقه عنه، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه، ثم ما كل فكر يهتدي

(٤) البيان والتبيين، ١/ ١٣٦

[١] أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق : السيد محمد رشيد رضا، الناشر : دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م، ص ١٢٣.

إلى وجه الكَشْف عمَّا اشتمل عليه، ولا كُل خاطر يؤذَن له في الوصول إليه، فما كل أحد يفلح فيَ شق الصدفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة، كما ليس كلُّ من دنا من أبواب الملوك، فُتحت له ..." (١) .

والمفهوم من كلام عبد القاهر الجرجاني، أن مهمة المتلقي لا تقتصر على الاستحسان أو الاستهجان، بل هي مهمة تشبه الغواص الماهر الذي يبحث وينقب عن الجواهر ويعمل فكره، وليس كل متلق يهتدي بفكره إلى الكشف عما اشتملت عليه صورة النص من معنى دقيق، بل لا بد أن يكون المتلقي له القدرة على إدراك وفهم العلاقات في مجال صورة النص، ولا بد أن يكون من أهل المعرفة والخبرة والتفكير؛ حتى يستطيع اكتشاف المعنى .

أما عن الوظيفة الجمالية وأثرها في النص الأدبي ودور المتلقي فيها فقد عبر إ مام وشيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني، وذلك بعدة مصطلحات تشكل جميعها الأثر الجمالي للنص وهي : التأثير، القراءة، التأمل، التأويل، حيث وصفها بوظائف للمتلقي حول النص وارتباطها بتقنيات أسلوبية أساسها وقوامها التفاعل المتبادل، ويقول في هذا الشأن : " ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلَى، وبالمزيَّة أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضنَّ وأَشْغف ولذلك ضرب المثل لكل ما لَطُف موقعه ببرد الماء على الظمأ(٢)، كما قال من البسيط(٣):

(وهنَّ ينبذْنَ من قولٍ يصبن به مواقعَ الماء منْ ذي الغُلة الصَّادي)

ومن خلال ما تقدم فالقراءة عند عبد القاهر الجرجاني هي ممارسة فعلية تساهم في بناء وتشكيل النص عن طريق التأويل الذي يعتبر بدوره عملية فكرية ينهض

(١) أسرار البلاغة ، ١١٩، ١٢٠.
(٢) أسرار البلاغة، ، ١٣٩.
(٣) ديوان القطامي، تحقيق : إبراهيم السامرائي، أحمد مطلوب، الناشر : دار الثقافة بيروت، ط١، ١٩٦٠م،٨١.

بها المتلقي لاكتشاف آليات انص وفهم أسراره للوصول إلى دلالاته وتحديد ايحاءاته، ومن ثمَّ تتحقق متعة النص، ولذة القراءة، والاحساس لدى المتلقي بالمتعة الجمالية في نفسه، كالظمآن الذي يشرب الماء البارد على غلة.

نتائج البحث :

من خلال البحث يتضح لي أنَّ نظرية التلقي

- هي مجموعة من المبادئ والأسس التي شاعت في ألمانيا خلال فترة الستينيات على يد مدرسة كونستانس، وتهدف إلى الثورة ضد البنيوية والوصفية وإعطاء الدور الجوهري في العملية النقدية للقارئ باعتبار أن العمل الأدبي منشأ حوار مستمر مع القارئ .
- مصطلح التلقي يستتبع الاهتمام بالقارئ، وبتجديد معنى النص وتأويله ، والوصول إلى نتائج يكون القارئ أو هويته هو محورها. فنظرية التلقي لم تقتصر على فاعلية القارئ فقط، بل فتحت أفقاً جديدا في مجال التأويل، ولم تعد غاية دراسة الأدب هي المعرفة فحسب، بل معرفة طرائق المعرفة وإمكانياتها وممكناتها مما يعني أنَّ الوقوف على دلالات النص لا يكون فقط بالتفسير، وإنما يتعداه إلى التأويل.

أهم المصادر والمراجع :

- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق : السيد محمد رشيد رضا، الناشر : دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م .
- عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق :عباس عبد الساتر، مراجعة : نعيم زرزور، الناشر : دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان،ط١، ١٤٠٢هـ .

- نظرية الاستقبال ، مقدمة نقدية، روبرت سي هول، ترجمة : رعد عبد الجليل جواد، الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط١، ١٩٩٢م .
- النظرية الأدبية المعاصرة، رامان سلدن، ترجمة: جابر عصفور، الناشر : دار قباء للنشر و التوزيع، القاهرة ،١٩٩٨م
- فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب في الأدب، فولفغانغ إيزر، ترجمة : حميد لحمداني، جلال الكدية، الناشر مكتبة المناهل، فاس .
- المقامات والتلقي، بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث، نادر كاظم، الناشر : مملكة البحرين وزارة الإعلام والثقافة والتراث الوطني، ط١ .
- جماليات التلقي مفهومها ومرجعياتها الفلسفية، محمد سعدون، قسم الآداب واللغة العربية ، جامعة مسيلة، الجزائر .